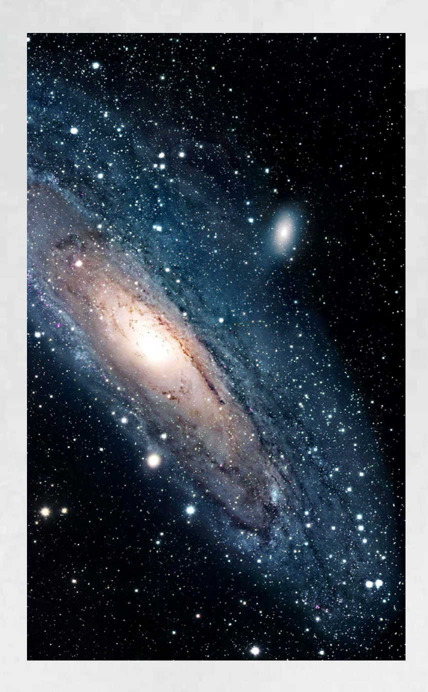




أصول الشِّرك

عند الإمام ابن القيِّم رحمه الله

محمد كربوز
إمام أستاذ. الجزائر

لقد تقرّر بأنَّ أعظم الذُّنوب عند الله هو الإشراكُ به، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء].

ولهذا كان بيان حقيقة هذا الشِّرك وبيان أصوله أعظمَ واجب على ورثة الأنبياء والدُّعاة إلى دين الله، ومن العلماء الَّذين بيَّنوا ذلك غاية البيان وأوضحوه أتمَّ الإيضاح الإمام أبو عبد الله محمَّد بن أبي بكر بن أيُّوب المعروف بابن قيِّم الجوزية، فقد بيَّن حقيقة الشِّرك بيانًا تامًّا شافيًّا[1]، كما ذكر في ثنايا كتبه أصولَه، وذلك لأنَّ معرفة أصول الأشياء من أعظم ما يعين على إدراك حقائقها، ومن أعظم ما يعين كذلك على التَّوصُّل إلى إبطالها وسدِّ الطُّرق إليها إن كانت شرًّا.

ولهذا أحببت في هذا المقال أن أقرِّب للقرَّاء الكرام ما وقفت عليه من تلك الأصول، وهي كالآتي:

التَّعطيل

■ وهو أربعةُ أنواع:

□ تعطيل المخلوقات عن خالقها.

□ تعطيل الله تعالى عن صفات كماله.

□ تعطيل الخلق عن الحقِّ الذي خُلقوا لأجله وهو عبادة الله وحده لا شريك له.

□ تعطيل الشَّرائع.

ذكر ابنُ القيِّم هذه الأنواعَ عند حديثه عن أقسام الفلاسفة وعقائدهم فقال:

«وبالجملة: فملاحدتُهم هم أهلُ التَّعطيل المحض، فإنَّهم عطَّلوا الشَّرائعَ، وعطَّلوا المصنوعَ عن الصَّانع، وعطَّلوا الصَّانعَ عن صفات كماله، وعطَّلوا العالَمَ عن الحقِّ الَّذي خَلَقَهُ له ربُّه، فعطَّلوه عن مبدئه ومعاده، وعن فاعله وغايته، ثمَّ سرى هذا الدَّاءُ منهم في الأمم، وفي فرق المعطِّلة»[2].

وذكر أنَّ التَّعطيل أصلٌ لكلِّ بلاء وشرٍّ، فعند حديثه عن فرق الدَّهريَّة المعطِّلين للمصنوعات عن صانعها قال:

«فداءُ التَّعطيل، وداءُ الإشراك، وداءُ مخالفة الرَّسول وجحد ما جاء به، أو شيءٍ منه: هو أصلُ بلاء العالم، ومَنبعُ كلِّ شرٍّ، وأساسُ كلِّ باطل، فليست فرقةٌ من فرق أهل الإلحاد والباطل والبدع إلاَّ

(1) انظر في ذلك: «الدَّاء والدَّواء» (298.318) و«مدارج السَّالكين» (2/911.930).

(2) «إغاثة اللَّهفان» (2/1033.1034)، وانظر: «الدَّاء والدَّواء» (ص299).

وقولُها مُشتقٌّ من هذه الأصول الثَّلاثة، أو مِن بعضها.

فإن تَنْجُ منها تَنْجُ من ذي عظيمة
وإلا فإنِّي لا أظنُّك ناجيًا»[3]

ومن البلاء والشَّرِّ والباطل الَّذي أصله التَّعطيلُ: الإشراكُ بالله تعالى.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالمعطِّلُ شَرٌّ من المشرك، فَإِنَّه لا يَستوي إنكارُ صفات الملك وحقيقة مُلكه والطَّعنُ في أوصافه هو، والتَّشريكُ بينَهُ وبَين غيره في الملك، فالمعطِّلون أعداءُ الرُّسل بالذَّات، بل كُلُّ شركٍ في العالَم فأصلُه التَّعطيل، فإنَّهُ لولا تَعطيلُ كماله ـ أو بعضه ـ وظَنُّ السَّوْءِ به: لَمَا أُشرك به، كما قال إمامُ الحُنفاء وأهل التَّوحيد لقومه: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ۝٨٦ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٨٧﴾ [سُورَةُ الصَّافَّاتِ]... والمقصود: أَنَّ التَّعطيلَ مَبدأُ الشِّرك وأَساسُهُ، فلا تجدُ مُعطِّلاً إلَّا وشِركُهُ على حَسَب تَعطيله، فَمُستَقِلٌّ ومُستَكثِرٌ»[4].

وقد بيَّن ابنُ القيِّم وجهَ كون التَّعطيل أصلاً للشِّرك، فبَعْد أن ذكر أنَّ الرُّوحَ كلَّما كانت بكمال ربِّها وجماله وأوصافه أعرفَ كلَّما كانت لربِّها أحبَّ وأطوعَ، وأنَّ العائقَ عن النُّهوض بجدٍّ في طاعة الله تعالى وعبادته هو إمَّا الجهلُ بكماله سبحانه وجماله وجلاله وأوصافه، وإمَّا فسادُ الإرادة لتعلُّقها بغيره، قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وإذا عُرف هذا، فالرُّسلُ جاءوا بكمال الأمرَين على أتمِّ الوجوه، فإنَّهم ذكروا من صفات هذا الرَّبِّ الَّذي تألَهُهُ القلوبُ وتطمئنُّ إليه الأرواحُ ما يكون داعيًا إلى محبَّته، وأَمروا النَّاس من توحيده وعبادته وحده لا شريك له بمَا إذا فعلوه أحبَّهم عليه، فجاءت النُّفاة المعارضون للوحي بعقولهم وآرائهم، فوقفوا في طريق الرُّسل وأتوا بما يضادُّ دعوتَهم، فنفَوا صفاته الَّتي تعرَّف بها إلى عباده، وجعلوا إثباتَها تجسيمًا وتشبيهًا، ووصفوه من السُّلوب والنَّفي بما حال بين القلوب وبين معرفته، وأكَّدوا ذلك بأنَّه لا يُحِبُّ ولا يُحَبُّ، ولا له وجهٌ يراه العابدون المحبُّون له يومَ القيامة، فضلاً عن أن يَحصُل لهم لذَّةٌ هناك بالنَّظر إليه، ولا يكلِّمُهم، ولا يخاطبُهم، ولا يسلِّمُ عليهم من فوقهم، فلمَّا استقرَّ هذا النَّفيُ في قلوبهم تعلقَّت بغيره من أصناف المحبوبات، فأشركت به في المحبَّة ولا بد، وكان أعظمُ الأسباب الحاملة لها على الشِّرك هو التَّعطيلَ، فانظر إلى تلازم الشِّرك والتَّعطيل وتصادُقهما وكونهما:

رضيعَي لِبان ثديَ أُمٍّ تَقاسما
بأسحَمَ داجٍ عَوْضَ لا نتفرَّقُ»[5]

التَّشبيه والغلوُّ في المخلوق

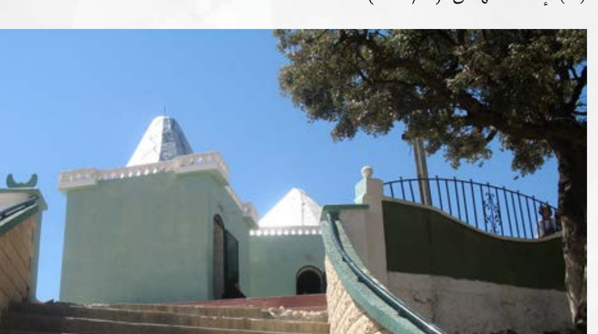
المرادُ بالتَّشبيه هنا تشبيهُ المخلوق بالخالق سبحانه وتعالى، وإعطاؤه شيئًا من خصائص الإلهيَّة، كالتَّفرُّد بملك الضَّرِّ والنَّفع والعطاء والمنع والكمال المطلق من جميع الوجوه والعبوديَّة ونحو ذلك، فالغلوُّ في المخلوق الَّذي هو أصلٌ من أصول الشِّرك هو حقيقةُ التَّشبيه، قال ابن القيم:

«ومن أسباب عبادة الأصنام: الغلوُّ في المخلوق، وإعطاؤه فوق منزلته، حتَّى جُعل فيه حظٌّ من الإلهيَّة، وشبَّهوه بالله سبحانه، وهذا التَّشبيهُ الواقعُ في الأمم الَّذي أبطله الله سبحانه، وبعث رسلَه، وأنزل كتبَه بإنكاره والرَّدِّ على أهله.

فهو سبحانه يَنفي، ويَنهى، أن يُجعل غيرُه مثلاً له، وندًّا له، وشِبْهًا له، لا أن يُشبَّه هو بغيره، إذ ليس في الأمم المعروفة أمَّةٌ جعلته سبحانه مثلاً لشيء من مخلوقاته، فجعلت المخلوقَ أصلاً وشبَّهت به الخالق، فهذا لا يُعرف في طائفة من طائفة بني آدم، وإنَّما الأوَّلُ هو المعروفُ في طوائف أهل الشِّرك، غلَوْا فيمن يُعظِّمونه، ويحبُّونه، حتَّى شبَّهوه بالخالق، وأعطوه خصائصَ الإلهية، بل صرَّحوا أنَّه إلهٌ، وأنكروا جعلَ الآلهة إلهًا واحدًا»[6].

وقد جعل ابنُ القيِّم هذا التَّشبيهَ أصلاً من أصول الشِّرك فقال:

«وهذا التَّشبيهُ الَّذي أبطله الله سبحانه نفيًا ونهيًا: هو أصلُ شرك العالَم، وعبادة الأصنام: ولهذا نهى النَّبيُّ أن يَسجُدَ أحدٌ لمخلوق مثله أو يحلفَ بمخلوق مثله، أو يصلِّيَ إلى قبر، أو يتَّخذَ عليه مسجدًا، أو يُعلِّقَ عليه قنديلاً أو يقولَ القائلُ: ما شاء الله وشاء فلانٌ، ونحوَ ذلك، حَذرًا من هذا التَّشبيه الَّذي هو أصلُ الشِّرك»[7].



(3) «إغاثة اللَّهفان» (2/1017).
(4) «مدارج السَّالكين» (5/3618ـ3619)، وانظر: «الدَّاء والدَّواء» (ص299).
(5) انظر: «الصَّواعق المرسلة» (4/1353ـ1356).
(6) «إغاثة اللَّهفان» (2/978).
(7) «إغاثة اللَّهفان» (2/987).



التَّعلُّق بغير الله

إنَّ مفسداتِ القلب كثيرة من أعظمها تعلُّقه بغير الله تعالى، قال ابن القيم:

«المفسدُ الثَّالثُ من مُفسدَات القَلبِ: التَّعَلُّقُ بغير اللَّه، وهذا أعظمُ مُفسداته على الإطلاق، فليس عليه أضرُّ من ذلك، ولا أقطعُ له عن الله وأحجبُ له عن مصالحه وسعادَته منه، فإنَّه إذا تَعلَّقَ بغير اللَّه وكلَهُ اللَّهُ إلى مَن تعلَّقَ به، وخَذلَهُ من جهَة ما تَعلَّقَ به، وفاتَهُ تَحصيلُ مقصُوده منَ اللَّه بتَعلُّقه بغيره، والتفاته إلى سوَاهُ، فلا على نصيبه من الله حصَل، ولا إلى ما أمَّلَه ممَّن تعلَّق به وصَل، قالَ اللَّهُ تَعالَى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۝٨٢﴾ [سُورَةُ مَرْيَمَ]، وقَالَ تَعالَى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ۝٧٤ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ۝٧٥﴾ [سُورَةُ يسٓ]»[8].

فالتَّعلُّق بغير الله محبَّة وتعظيمًا وخوفًا ورجاءً وتوكُّلاً واستعانةً أَسَاسُ الشِّرْكِ وَقَاعدَتُهُ الَّتي بُنِيَ عَلَيْهَا، ولا ينال صاحبه إلاَّ الذَّمّ والخسران ولا يحصد إلاَّ النَّدامة والخذلان، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ۝٢٢﴾ [سُورَةُ الإِسْرَاءِ].

(8) «مدارج السَّالكين» (1175/2).

المحبَّة مع الله

المحبَّةُ مع الله (المحبَّةُ الشِّركيَّة) هي محبَّةُ العبوديَّة والتَّألُّه والموالاة المستلزمةُ للذُّلِ والخضوع والتَّعظيم وكمالِ الطَّاعة والإيثارِ على الغير المُتَّبعة بالخوف والرَّجاءِ والعبادة والدُّعاء.

قال ابن القيِّم:

«وأمَّا المحبَّةُ مع الله، فهي المحبَّةُ الشِّركيَّةُ، وهي كمحبَّة أهلِ الأنداد لأندادهم كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ۝١٦٥﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ].

وأصلُ الشِّرك الَّذي لا يغفره اللهُ هو الشِّركُ في هذه المحبَّة، فإنَّ المشركين لم يزعُموا أنَّ آلهتهم وأوثانَهم شاركت الربَّ سبحانه في خلق السَّموات والأرض، وإنَّما كان شركُهم بها من جهة محبَّتها مع الله، فوالَوْا عليها، وعادَوْا عليها وتألَّهوها، وقالوا هذه آلهةٌ صغارٌ تقرِّبُنا إلى الإله الأعظم، ففرقٌ بين محبَّة الله أصلاً، والمحبَّة له تبعًا، والمحبَّة معه شركًا، وعليك بتحقيق هذا الموضع فإنَّه مفرقُ الطُّرق بين أهل التَّوحيد وأهل الشِّرك»[9].

وقد بيَّن ابنُ القيِّم حقيقةَ هذه المحبَّة الشِّركيَّة وضابطها فقال:

«وأمَّا المحبَّةُ الخاصَّةُ الَّتي لا تصلُح إلاَّ للَّه وحده ومتى أحبَّ العبدُ بها غيرَه كان شركًا لا يغفره الله، فهي محبَّةُ العبوديَّة المستلزمةُ للذُّلِّ والخضوع والتَّعظيم، وكمال الطَّاعة وإيثاره على غيره، فهذه المحبَّةُ لا يجوز تعلُّقها بغير الله أصلاً، وهي الَّتي سوَّى المشركون بين آلهتهم وبين الله فيها»[10].

(9) «روضة المحبِّين» (409.410).

الشَّفاعة الشِّركيَّة

■ **الشَّفاعة نوعان:**

الأولى: شفاعةٌ مثبَتةٌ وهي الشَّفاعة لأهل التَّوحيد ولها شرطان: إذنُ الله للشَّافع ورضاه عن الشَّافع والمشفوع له.

والشَّفاعة الثَّانية: شفاعةٌ مَنفيَّةٌ وهي الشَّفاعةُ الَّتي كان يعتقدُها المشركون في آلهتهم ومعبوداتهم وهي الشَّفاعةُ من دون الله أي من غير إذنه سبحانه كما يشفع خواصُّ وأولياءُ الملوك والكُبَراءِ عندهم في الحوائج.

وجعل ابن القيِّم الشَّفاعة الشِّركيَّة المنفيَّةَ أصلاً من أصول الشِّرك فقال:

«فإنَّهُ سبحانه نفى الشَّفَاعَة الشِّركيَّة الَّتي كانوا يعتقدونها وأمثالُهم من المشركين، وهي شفاعةُ الوسائط لهم عند الله في جلب مَا يَنفعهم ودفع ما يضرُّهم بذواتها وأنفسها بدون توقُّف ذلك على إذن الله ومرضاته لمن شاء أن يشفع فيه الشَّافع، فهذه الشَّفَاعَة الَّتي أبطلها اللَّه سبحانه ونفاها، وهي أصلُ الشِّرك كُلِّه، وقاعدتُه الَّتي عليها بِنَاؤُه وآخيَتُه الَّتي يرجع إليها»[11].

(10) «طريق الهجرتين» (584).

(11) «مفتاح دار السَّعادة» (1952/3)، وانظر: «إغاثة اللَّهفان» (103/1.104)، و(394/1.400).

تعظيمُ الموتى والافتتانُ بقبورهم

فتنة القبور من أعظم الفتن الَّتي أضلَّ بها الشَّيطان الكثير من النَّاس وهذا كذلك أصل من أصول الشِّرك، فطلبُوا الحوائج من الموتى واستغاثوا بهم، وتوجَّهوا إليهم وقصدوهم، وهذا أصلُ الشِّرك، قال ابنُ القيِّم:

«ومن أعظم مكايده الَّتي كاد بها أكثرَ النَّاس، وما نجا منها إلاَّ مَن لم يُرد الله تعالى فتنتَه: ما أوحاه قديمًا وحديثًا إلى حزبه وأوليائه من الفتنة بالقبور، حتَّى آل الأمرُ فيها إلى أن عُبِدَ أربابُها من دون الله، وعُبدت قبورُهم، واتُّخذت أوثانًا، وبُنيت عليها الهياكلُ، وصُوِّرت صُوَرُ أربابها فيها، ثمَّ جُعلت تلك الصُّورُ أجسادًا لها ظلٌّ، ثم جُعلت أصنامًا، وعُبدت مع الله، وكان أوَّلُ هذا الدَّاء العظيم في قوم نوح...»[12].

وقد بيَّن كيفيةَ تدرُّج الشَّيطان بالنَّاس في هذه الفتنة فقال:

«والمقصود: أنَّ الشَّيطانَ بلُطف كيده يُحسِّن الدُّعاءَ عند القبر، وأنَّه أرجحُ منه في بيته ومسجده وأوقاتِ الأسحار. فإذا تقرَّر ذلك عنده نقله درجةً أخرى، من الدُّعاء عنده إلى الدُّعاء به، والإقسام على الله به، وهذا أعظمُ من الَّذي قبلَه، فإنَّ شأنَ الله أعظمُ من أن يُقسَم عليه، أو يُسأل بأحد من خلقه... فإذا قرَّر الشَّيطانُ عنده أنَّ الإقسامَ على الله به، والدُّعاءَ به أبلغُ في تعظيمه واحترامه، وأنجعُ في قضاء حاجته، نقله درجةً أخرى إلى دعائه نفسِه من دون الله، ثمَّ ينقُله بعد ذلك درجةً أخرى إلى أن يَتَّخذ قبرَه وثنًا يَعكُف عليه ويوقد عليه القنديلَ، ويعلِّق عليه السُّتور، ويَبني عليه المسجد، ويعبدُه بالسُّجود له، والطَّواف به وتقبيله واستلامه والحجِّ إليه والذَّبح عنده، ثمَّ ينقلُه درجةً أخرى إلى دعاء النَّاس إلى عبادته، واتِّخاذه عيدًا ومنسكًا وأنَّ ذلك أنفعُ لهم في دنياهم وآخرتهم»[13].

(12) «إغاثة اللَّهفان» (1/330).

(13) «إغاثة اللَّهفان» (1/389ـ391).

تعظيمُ الكواكب وروحانيَّاتها المزعومة

جعل ابنُ القيِّم الأصلَ السَّابقَ أصلَ شركِ العوام، وأمَّا هذا الأصلُ فجعله أصلَ شركِ الخواصِّ فقال رحمه الله:

«وتلاعبُ الشَّيطان بالمشركين في عبادة الأصنام له أسبابٌ عديدة، تلاعَب بكلِّ قوم على قدر عقولهم: فطائفةٌ دعاهم إلى عبادتها من جهة تعظيم الموتى، الَّذين صوَّروا تلك الأصنامَ على صُوَرهم، وهذا السَّببُ هو الغالبُ على عوامِّ المشركين.

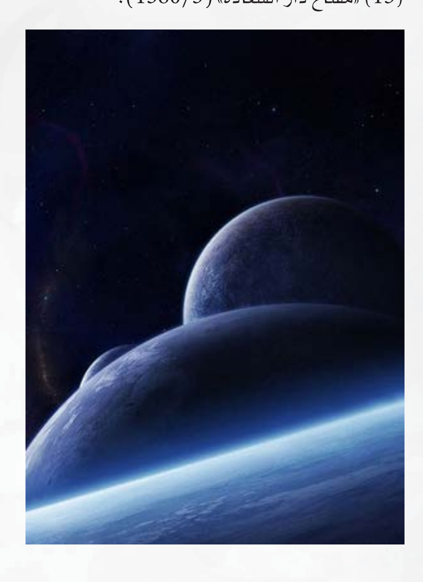
وأمَّا خواصُّهم فإنَّهم اتخذوها بزعمهم على صُوَرِ الكواكب المؤثِّرة في العالَم عندهم، وجعلوا لها بيوتًا، وسدَنة، وحُجَّابا، وحجًّا وقُربانًا، ولم تزل هذه في الدُّنيا قديمًا وحديثًا، وأشدُّ الأمم في هذا النَّوع من الشِّرك: الهند، وأصلُ هذا المذهب من مشركي الصَّابئة، وهم قومُ إبراهيم عليه السلام، وهو مذهبٌ قديمٌ في العالَم، وأهلُه طوائفُ شتَّى، فوضعُ الصَّنم إنَّما كان في الأصل على شكل معبود غائب، فجعلوا الصَّنمَ على شكله وهيئته وصورته، ليكون نائبا منابَه، وقائمًا مُقامه، وإلاَّ فمن المعلوم أنَّ عاقلاً لا ينحتُ خشبة أو حجرًا بيده، ثمَّ يعتقد أنَّه إلهُه ومعبودُه»[14].

وذكر ابنُ القيِّم أنَّ الإشراكَ بالكواكب أقوى سببًا من الإشراك بالقبور فقال:

«وهذا أقوى السَّببيْن في الشِّرك الواقع في العالَم، وهو الشِّركُ بالنُّجوم وتعظيمُها، واعتقادُ أنَّها أحياءٌ ناطقة، ولها روحانيَّاتٌ تتنزَّل على عابديها ومخاطبيها، فصوَّروا لها الصُّورَ الأرضيَّةَ، ثمَّ جعلوا عبادتَها وتعظيمَها ذريعةً إلى عبادة تلك الكواكب واستنزال روحانيَّاتها، وكانت الشَّياطينُ تتنزَّل عليهم وتخاطبُهم وتكلِّمهم وتُريهم من العجائب ما يدعوهم إلى بَذل نفوسهم وأولادهم وأموالهم لتلك الأجسام والتَّقرُّب إليها، وكان مبدأ هذا الشِّرك تعظيمَ الكواكب وظنَّ السُّعود والنُّحوس وحصولَ الخير والشَّرِّ في العالَم منها، وهذا شركُ خواصِّ المشركين وأرباب النَّظر منهم، وهو شرك قوم إبراهيمَ»[15].

(14) باختصار من «إغاثة اللَّهفان» (2/972ـ975)، وانظر: «مفتاح دار السَّعادة» (3/1378ـ1383).

(15) «مفتاح دار السَّعادة» (3/1380).



القول على الله بلا علم

ذكر ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ المحرَّمات المذكورةَ في كتاب الله تعالى اثنا عشر جنسًا[16]، وأنَّ العبد لا يستحقُّ اسمَ التَّائب حتَّى يَخلُص منها جميعًا، وأنَّ القولَ على الله بلا علم أشدُّها حرمةً وأعظمُها إثمًا.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وأمَّا القولُ على اللَّه بلا علم فهو أشدُّ هذه المحرَّمات تحريمًا، وأعظمُها إثمًا، ولهذا ذُكرَ في المرتبة الرَّابعة من المحَرَّمات الَّتي اتَّفقت عليها الشَّرائعُ والأديانُ، ولا تُباحُ بحالٍ، بل لا تكونُ إلا مُحَرَّمةً، وليست كالميتة والدَّم ولحم الخنزير، الَّذي يُباحُ في حالٍ دونَ حالٍ.

فإنَّ المحَرَّمات نوعان: مُحَرَّمٌ لذاته لايُباحُ بحالٍ، ومُحَرَّمٌ تحريمًا عارضًا في وقت دون وقت، قال اللَّه تعالى في المحَرَّم لذاته: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: 33] ثُمَّ انتقلَ منه إلى ما هو أعظمُ منه فقال: ﴿وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ ثُمَّ انتقل منه إلى ما هو أعظمُ منه، فقال: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ ثُمَّ انتقل منه إلى ما هو أعظمُ منه، فقال: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٣﴾، فهذا أعظمُ المحَرَّماتِ عند اللَّه وأشدُّها إثمًا».

فالقول على الله بلا علم يتضمَّن الكذبَ على الله ووصفَه بما لا يليق في ذاته وصفاته وأفعاله؛ وهو أصل الشِّرك والضَّلال وعبادة غير الله، قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ:

«فليس في أجناس المحَرَّمات أعظَمُ عند اللَّه منه، ولا أشدُّ إثمًا، وهو أصلُ الشِّرك والكُفر، وعليه أُسِّست البدعُ والضَّلالاتُ، فكلُّ بدعة مُضلَّة في الدِّين أساسُها القولُ على اللَّه بلا علم»[17].

وبيَّن رَحِمَهُ اللَّهُ وجهَ كون القولِ على الله بلا علم أصلَ الشِّرك فقال:

«وأصلُ الشِّرك والكُفرِ هو القولُ على اللَّه بلا علم، فإنَّ المشركَ يزعُمُ أنّ من اتَّخذَهُ معبودًا من دون اللَّه، يُقرِّبُهُ إلى اللَّه، ويَشفعُ له عنده، ويقضي حاجتَه بواسطته، كما تكون الوسائطُ عند الملوك، فكُلُّ مُشركٍ قائلٌ على اللَّه بلا علمٍ دون العكس، إذ القولُ على اللَّه بلا علمٍ قد يتضمَّنُ التَّعطيلَ والابتداعَ في دين اللَّه، فهو[18] أعظمُ من الشِّرك، والشِّركُ فَردٌ من أفراده»[19].

هذا ما وقفت عليه من أصول الشِّرك الَّتي ذكرها ابن القيِّم فأسألُ اللَّه - عزَّ وجلَّ - أن يقيَنا وإخوانَنا الشِّركَ ما ظهر منه وما خفي، وأن يطهِّر بلادنا وسائرَ بلاد المسلمين من الشِّرك ومظاهره، وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه.



(16) وهي: الكفر، والشِّرك، والنِّفاق، والفسوق، والعصيان، والإثم، والعدوان، والفحشاء، والمنكر، والبغي، والقول على بلا علم، واتِّباع سبيل غير سبيله، انظر: «مدارج السَّالكين» (2/899).



(17) «مدارج السَّالكين» (2/990).

(18) أي: القول على بلا علم.

(19) «مدارج السَّالكين» (2/991).